﴿وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ فَلَمَّا تَرَٰٓءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٤٨﴾ [الأنفال: 48]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المناسبةُ بين بطرِ الكفّارِ في بدرٍ، ونكوصِ الشَّيطانِ عن نصرةِ أوليائِه المنهزمينَ

لمّا أخبرَ اللّهُ تعالى عن حالِ الفريقينِ يومَ بدرٍ في الآياتِ السّابقةِ؛ جاءت هذه الآيةُ معطوفةً على قولِه: ﴿وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلٗا﴾، زيادةً في إيضاحِ لطفِ تدبيرِه تعالى، وبيانِ صنعِه يومَ بدرٍ، فيكونُ الكلامُ السّابقُ الَّذي توسَّطَ بين العاطفِ والمعطوفِ اعتراضًا، فذكرَ في الاعتراضِ ما يَنْبَغي للمؤمنين عند اللِّقاءِ، ليَجْمعَ لهم بين الأمْرِ بما يَنْبَغي، والتَّحْذيرِ ممّا لا يَنْبَغي، وتَرْكِ التَّشَبُّهِ بمَنْ لا يُرْتَضَى، فيَكونُ للآيةِ إتْمامُ المُناسَبَةِ بحكايَةِ خُروجِهم وأحْوالِه، ليتمَّ هذا الأسلوبُ البديعُ المحكمُ الانتظام[1]، وأيضًا جاءت هذه الآيةُ استمرارًا في تصويرِ ما حصلَ يومَ بدرٍ، فإنَّهُ لمّا ذكرَ أحوالَهم الَّتي خرجوا بها من ديارِهم، وذكرَ أحوالَ المشركينَ الَّتي نهى عن التَّشبُّهِ بها؛ بيَّن أنَّ ما كانوا يعملونَهُ، وما يظهرونَهُ من الأحوالِ، إنَّما كانَ من تزيين الشَّيطانِ؛ تنفيرًا للمؤمنينَ من أعمالِهم، وتعظيمًا لقدرِ النَّصرِ، وبيانًا أنَّ نصرَ المؤمنين كان نصرًا على المشركين، وعلى الشَّيطانِ الَّذي زيَّنَ لهم.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿زَيَّنَ﴾: الزّاءُ والياءُ والنّونُ أصْلٌ صَحيحٌ، يَدُلُّ على حُسْنِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/34، وينظر: الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (زين).

الشَّيْءِ وتَحْسينِه[1]، يدورُ معنى لفظ (زَيَن) على حسنِ الشَّيءِ وتحسينِه، فالزَّيْنُ نقيضُ الشَّيْنِ الَّذي هو القبحُ، وازَّيَّنَتِ الأرضُ، وتَزَيَّنَتْ، أي: حَسُنت وبَهُجَتْ بنباتِها، ثمَّ عُمِّمَ اللَّفظُ لكلِّ ما يتزيَّنُ بهِ، فالزّينةُ اسمٌ جامعٌ لكلِّ شَيْءٍ يُتَزيَّنُ به، وزَيَّنَ الشَّيءَ: جعلَ الشَّيءَ ذا زينةٍ، أو إظهارهُ زينًا، أو نسبتهُ إلى الزَّينِ، وهوفي الآيةِ بمعنى إظهارهِ في صورةِ الزَّينِ، إمّا بالفعلِ، وإمّا بالقولِ، وإن لم يكن في الحقيقةِ زينًا، والتَّزيينُ قد ينسبُ إلى اللّهِ تعالى، وقد ينسبُ إلى الشَّيطانِ، وقد يُذكَرُ غيرَ مسمًّى فاعلُهُ.

2) ﴿لَا غَالِبَ﴾: جذرُ الكلمةِ الغلبُ، وفي الأصل يطلق الغلبُ على الرَّقبةِ العظيمةِ، ومنهُ الأغْلَبُ: الغليظُ الرَّقبةِ عَظيمُها، ويدورُ معنى الكلمةِ على الشِّدَّةِ مع علوٍّ ما، وعِظَم جِرْم، والغَلَبُ: القوَّةُ والقهرُ والشدَّةُ، ومنه تغلَّبَ على بلدِ كذا: استولى عليهِ وملَّكَهُ قهرًا، كأنَّ من استولى، تناولَ غَلَبَ الرَّقبةِ إشعارًا بقوَّتِه وشدَّتِه، وسائرُ ما في القرآنِ من التَّركيبِ، هو من الغَلَبِ: القهرِ[2].

3) ﴿جَارٌ﴾: يدلُّ معنى اللَّفظِ، على دخولٍ في حيِّز شيءٍ بقوَّةٍ للإقامةِ، والجارُ: من يقربُ مسكنُهُ منكَ، ولمّا كان عندَ العربِ من حقوقِ الجيرةِ، استُعملتِ المجاورةُ، والإجارةُ في معنى الحماية؛ ولمّا تُصوِّرَ مِنَ الجارِ، معنى القربِ؛ دلَّ الجوارُ على معنى الحماية مع القُربِ منهُ، فعبَّرَ عن كلِّ من يعظِّم حقَّهُ، أو يستعظم حقَّ غيرهِ بالجار، ويقالُ: استجرْتُهُ فأجارني[3].

4) ﴿تَرَآءَتِ﴾: الرّاءُ والهمزةُ والياءُ، أصلٌ يدلُّ على نظرٍ وإبصارِ بعينٍ أو بصيرةٍ، ويقال: تراءى القومُ، أي: رأى بعضُهم بعضًا، ففي الصّيغةِ معنى المشاركةِ، وتراءى فلانٌ لفلانٍ؛ إذا تعرَّضَ له ليراهُ[4]، وتقولُ: تراءى لي فلانٌ، أي: تصدَّى لكَ لتراهُ، وتراءى له تابعُهُ من الجنِّ؛ إذا ظهرَ لهُ ليَراهُ، والمِرآةُ التي يُنْظَرُ فيها[5]، وفي القرآنِ: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾ [الشّعراء: 61].

(1) ابن فارس، معجم مقاييس اللّغة: (زين).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، والجوهريّ، الصّحاح، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (غلب).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (جور).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رأى).
(5) الخليل، العين: (رأي).

5) ﴿نَكَصَ﴾: المعنى المحوريُّ لهذهِ المادَّةِ: الرُّجوعُ القهقرى بقوَّةٍ إلى الخلفِ، يقالُ: نكصَ عن الأمرِ: أحجمَ، وتركيبُ ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ يُقصدُ بهِ الرُّجوعُ القهقرى، ومنهُ قولُهم: أرادَ فلانٌ أمرًا، ثمَّ نكَصَ على عَقبيهِ، أي: أحجمَ عنهُ، ورجعَ القَهْقَرى بقوَّةٍ إلى الخلفِ، أي: تأخَّرَ عَن ما تقدَّمَ لَهُ الآخر خوفًا أو هيبةً، وهو في الآيةِ بمعنى رجعَ هاربًا، وتركَ غيرَهُ متقدِّمًا[1].

6) ﴿عَقِبَيْهِ﴾ العِقابُ: العَقِبُ مؤخَّرُ الشَّيءِ، ويدورُ بابُ الكلمةِ على معنى أنْ يَجيءَ الشَّيْءُ بعَقِب الشَّيْءِ، أيْ: مُتَأخِّرًا عنه، ومنه قولهم: (جاءَ زَيْدٌ يَطَأُ عَقِبَ عَمْرٍو)، والمعنى: كُلَّما رَفَعَ عَمْرٌو قَدَمًا؛ وضَعَ زَيْدٌ قَدَمَهُ مَكانَها، والعقِبُ هو مؤخَّرُ القدمِ، وجمعهُ: أعقابٌ، ومنه العقابُ؛ لوقوعِه عقبَ الفعلِ الَّذي يُجازى عليهِ، يُقالُ: عاقبتُ الرَّجلَ، أي: جزيتُهُ بما فعلَ سوءًا، وأصلُ ذلك: أنَّكَ جعلْتَ ثمرةَ عملِهِ تَعْقُبُهُ، أي: تلحقُهُ لا يفوتها، والعُقوبَةُ والمعاقبةُ والعِقابُ يُختَصُّ بالعذابِ[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

خذلانُ الشَّيطانِ لأتباعِهِ سنَّةٌ، ما فتئت تتجدَّدُ ولاتتبدَّدُ

يقول السّياقُ: واذكر - يارسولَ اللّهِ - حين حسَّنَ الشَّيطانُ للمشركين خروجَهم إليكم، لحربِكم وقتالِكم، وما جاؤوا له بأنْ وسوسَ لهم، وقال لهم بأنْ ألقى في روعِهم: لن يغلبَكم اليومَ أحدٌ من النّاس، وإنّي ناصرُكم، فلمّا تقابلَ الفريقانِ: المشركونَ، ومعهم الشَّيطانُ، والمسلمونَ، ومعهم الملائكةُ، ورأى بعضُهم بعضًا ارتدادَ الشَّيطان هاربًا، وهو يقولُ للمشركين: إنّي بريءٌ منكم، إنّي أرى ما لا ترونَ من الملائكةِ الَّذين جاؤوا مددًا للمسلمين، إنّي أخافُ اللّه،

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (نكص)، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 4/222.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والفيّوميّ، المصباح المنير، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (عقب).

فخذلَهم، وتبرَّأ منهم، واللّهُ شديدُ العقابِ، لمَنْ عصاهُ، ولم يتبْ توبةً نصوحًا[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبةُ التَّعبيرِ بلفظِ (إذْ):

وعـدُ الشَّيطانِ غـرورٌ، وميثاقهُ ضلالٌ وزورٌ

في قولِه تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾، لمّا كانَ تصديرُ الكلامِ بـ﴿وَإِذْ﴾ لتعظيمِ شأنِ المذكورِ بعدَها، بما يفيدُهُ تعظيمُ الظَّرفِ تعظيمَ الحدثِ الواقعِ فيه، والمعنى: "واذكُر وقتَ تزيينِ الشَّيطانِ أعمالَهم في معاداةِ المؤمنينَ وغيرِها، بأن وسوسَ إليهم"[2]، وواضحٌ أنَّ الظَّرفيَّةَ الزَّمنيَّةَ هنا مرعيَّةٌ؛ لأنَّ الشَّيطانَ تشكَّلَ لهم في صورةٍ آدميَّةٍ في ذلك الزَّمانِ، وقبل أن يلتقيَ الجمعانِ، ليقنعَهم بما يريدُ تزيينَهُ لهم، قال المفسِّرونَ: وإبليسُ قد تصوَّرَ في صورةِ سراقَةَ بنِ جعْشمٍ المدلجيِّ، يجيرُ المُشركين، ويخبرُهم أنَّه لا غالبَ لهم اليَوْم من النَّاسِ، فلمّا أبْصرَ المَلائكَةَ؛ نكصَ على عَقِبَيْه[3]، قال ابن عاشورٍ: "ويَجوزُ أنْ يَكونَ إسْنادًا مَجازيًّا، وإنَّما المُزَيِّنُ لهم سُراقَةُ بإغْراءِ الشَّيْطانِ، بما سَوَّلَ إلى سُراقَةَ بْنِ مالكٍ مِن تَثْبيتِه المُشْركينَ على المُضيِّ في طَريقِهم، لإنْقاذِ عيرِهم، وألّا يَخْشَوْا غَدْرَ كِنانَةَ بهمْ"[4]، وأيًّا كانتِ الرِّوايةُ محمولةً على الحقيقةِ أو على المجازِ، فقد كان تزيينُ الشَّيطانِ مرتبطًا بالأوانِ، ودلالةُ (إذْ) الظَّرفيَّةِ عليه بليغةٌ.

بلاغةُ تلوينِ الخطابِ:

تلوينُ الخطابِ مـن بـراعـةِ النَّـظـمِ، وفيـهِ راحةٌ للمخاطبِ

بعد أن كانَ الخطابُ في الآياتِ السّابقةِ للمؤمنين بالأمرِ والنَّهي، لبيانِ أسبابِ النَّصرِ، خوطبَ النَّبيُّ ﷺ، في هذهِ الآيةِ بطريقِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 13/7، نخبة من أساتذة التّفسير، ص: 183.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/26.
(3) السّيوطيّ، الدّرّ المنثور: 4/78.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/35.

التَّلوين[1]، وفي ذلك تنويعٌ وتحسينٌ للسّياقِ الَّذي تقدَّمَ فيهِ مضامينُ الخطابِ، وفيه نَقْلٌ لوجهةِ الخطابِ من جهةٍ إلى أخرى، لاستيعابِ العناصرِ المعنيَّةِ بالدِّلالةِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ (فَعَّلَ):

تحسينُ الشَّيطانِ أعمالَ المشركين، لا يجعلُها حسنةً

في قولِه تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾، لمّا كانت صيغةُ (فَعَّلَ)، لنسبةِ المفعولِ إلى أصلِ الفعلِ، لتسميَتِه به، ولتكثيرِ أصلِ الفعل[2]؛ دلَّ على أنَّ تزيينَ الشَّيطانِ أعمالَ المشركينَ الَّتي عملوها في معاداةِ رسولِ اللّهِ ﷺ، وفي مسيرِهم إلى بدرٍ، وقتالِهم رسولَ اللّهِ ﷺ وتزيينِه لهم قوَّتَهم، حتَّى اعتمدوها، كان بإظهارِها في عقولِهم وحسبانِهم في صورةِ الزَّين، وهي في الحقيقةِ ليست كذلك، والمعنى: نسبَها إلى الزَّين، وصوَّرها كذلك مع تكرُّرِ فعلِ التَّزيين منه؛ ترغيبًا فيها، ليقبلوا عليها، ويزيدوا منها رغبةً فيها، وليكون تزيينُهُ صدًّا لهم، عن رؤيةِ الحقِّ واتِّباعِه، كما قال تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النّمل: 24].

دلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ:

متابعةُ الشَّيطانِ إيذانٌ بسوءِ العملِ، وسوءِ العاقبةِ

في قولِه تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ على الفاعلِ والمفعولِ؛ للإشعارِ باهتمامِ الشَّيطانِ بهم، ممّا يُنْبِئُ عن سوءِ أعمالِهم، ولأنَّ الكلامَ مسوقٌ فيهم، وفي التَّقديمِ إشعارٌ بتخصيصِ تزيينِ الشَّيطانِ لهم دونَ المسلمين، فهو تخصيصٌ إضافيٌّ، لبيانِ منَّةِ اللّهِ على المؤمنينَ، بحفظِه لهم من الشَّيطانِ وتزيينِه، يومَ الفرقانِ، وهذا بليغٌ في بابِه.

نكتةُ مجيءِ لفظِ ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾، بصيغةِ الجمعِ:

لمّا كانَ لفظُ زيَّنَ على معنى تكثيرِ التَّزيُّنِ ناسبَهُ مجيءُ الأعمالِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/26، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/100.
(2) الرّضيّ، شرح شافيّة ابن الحاجب: 1/93 - 94.

بصيغةِ الجمعِ، لظهورِ معنى التَّكثيرِ فيها، فيكونُ التَّزيينُ لكلِّ عملٍ من أعمالِهم، والمعنى: اذكر إذ زيَّنَ الشَّيطانُ لهؤلاءِ الكفّارِ أعمالَهم، والمقصودُ الأعمالُ الَّتي عملوها في معاداةِ رسولِ اللّهِ ودعوتِه، وقد كانوا يخطِّطونَ، ويسعونَ حثيثًا لوأدِ الإسلامِ، والإجهاضِ على دعوتِه، ولا يدَّخرون في ذلك جهدًا، ولذلك فقد زَيَّنَ لهم الشَّيطانُ مجملَ ما بادروا إليه من أعمالٍ، وكان الصَّوغُ بوزن الجمع منطبقًا على واقعِ المواجهةِ الدَّؤوبةِ المبرزةِ في السّياقِ.

تلوُّنُ مكرِ الكفرةِ وكيدِهم، نتاجُ تزيينِ الشَّيطانِ بدونِ توانٍ

بلاغةُ الكنايةِ في التَّعبيرِ:

في قولِه تعالى: ﴿زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾، التَّعبيرِ بلفظ ﴿زَيَّنَ﴾، كنايةٌ عن أمرين؛ أحدهُما: فيه كنايةٌ عن ضلالِ أعمالِهم، والثّاني: أنَّ التَّزيين، بمعنى الإضلالِ والإغواء، فإنَّ تزيينَ الشَّيطانِ إغواءٌ لهم، باتِّباع خطواتِه وطاعتِه، كما أنَّ تزيينَ اللّهِ للإيمانِ توفيقٌ وهدايةٌ للمؤمنينَ.

تزيينُ الشَّيطانِ غوايةٌ، وتزيينُ اللهِ هدايةٌ

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾، ذكرَ لفظَ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾، ولم يسمِّه باسمِ إبليسَ؛ لأنَّ الشَّيطانَ لمّا كان مشتقًّا من شطنَ بمعنى بَعُدَ، عُبِّرَ به للإشعارِ بأنَّ تزيينَهُ ووسوستَهُ، إبعادٌ للمشركين عن الحقِّ وإضلالٌ لهم عن الهُدى والرَّشادِ، والغالبُ أن يُستعملَ لفظُ الشَّيطانِ في الكيدِ والصِّراعِ، وفي الإغراءِ والإغواءِ، ولذلك قالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ٦﴾ [فاطر: 6].

تزيينُ الشَّيطانِ لأتباعِه، ووسوستُه لهم إبعادٌ عن الحقِّ والهُدى

دلالةُ (لا) النّافيةِ للجنسِ في قولِه: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمۡ﴾:

قولُه: ﴿لَكُمۡ﴾ خبرٌ للأداةِ (لا) النّافيةِ للجنسِ[1]، أي: لنفي وجودِ أيِّ أحدٍ، ممَّن له وصفُ الغلبةِ لكم، والمعنى على استغراقِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/228، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/62، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/334.

نفي جنسِ الغالبين للمشركين ذلك اليوم، والتَّقديرُ (لا غالب كائنٌ لكم)، ويكونُ ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ ظرفًا مقيَّدًا؛ إشعارًا بظهورِ أمرِهم وشأنِهم في ذلك اليوم، إن غلبوا المسلمينَ، وتأكيدًا لنفي غلبتِهم، وتقريرَه في ذلك اليوم، ولمّا كان القتالُ بين فئتين، يقتضي وجودَ غالبٍ ومغلوبٍ، وكان ﴿لَكُمُ﴾ هو الخبرُ؛ دلَّ على أن لا غالبَ لكم، يفيدُ بمفهومِه (إنَّكم أنتم الغالبون)، ففي الكلام مبالغةٌ في المعنى، وفي التَّعبيرِ بهذا التَّركيبِ نكتةٌ أخرى؛ لِما يفيدُهُ النَّفي بـ(لا) للجنسِ من كونِها جوابًا لسؤالٍ تقديرهُ: هل مِن غالبٍ لكم اليومَ[1]؟ وبيانُه أنَّ الشَّيطانَ لمّا زيَّن للمشركين أعمالَهم ومسيرَهم وقوَّتهم؛ تعاظموا، وظنّوا أن لا أحدَ يغلبُهم، فكأنَّهم قد قالوا حينئذٍ: هل من غالبٍ لنا اليومَ؟ على معنى العموم، لمجيءِ النَّكرةِ في سياقِ النَّفي، فقالَ الشَّيطانُ مؤكِّدًا ومقرِّرًا: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾، وأجازَ بعضُ المفسِّرين أن يكونَ ﴿لَكُمُ﴾ صفةً لقوله: ﴿غَالِبَ﴾، ويكون اليومُ خبرًا له[2]، والوجهُ الأوَّلُ هو الظّاهرُ تركيبًا ومعنًى.

إفادةُ نفي الجنسِ المبالغةُ في النَّفي؛ ليصدِّقَهُ المشركونَ

دلالةُ (أل) في لفظِ ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾، تفيدُ (أل) من لفظِ ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ العهدَ العلميَّ، بمعنى: يوم بدرٍ، للإشعارِ بحضورِه في أذهانِهم، ويومُ بدرٍ علامةٌ زمنيَّةٌ فارقةٌ في الصِّراعِ المحتدم بين الطَّرفين، وهو يومٌ مشهودٌ، وقد سُمّيَ لذلك يومَ الفرقانِ؛ لأنَّهُ فرَّقَ فيهِ بينَ الحقِّ والباطلِ، وقد زيَّنَ الشَّيطانُ للكفّارِ: أنَّهم وصلوا إلى ذلك المستوى من العزوةِ في ذلكَ اليوم، فلا يحقُّ لهم الانسحابُ دونَ تخليدِ وجودِهم القويِّ، لتأديبِ من يتطاولُ عليهم.

يومُ بدرٍ علامةٌ فارقةٌ في تاريخِ الصِّراعِ بين الكفرِ والإيمانِ

(1) سيبويه، الكتاب: 2/275.

(2) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 5/616، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/26.

دلالةُ ﴿مِنَ﴾ في قولهِ: ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾:

نـفـيُ الـجـنـسِ تقريرٌ للإعلامِ، وتـحـفـيـزٌ من الشَّيطانِ على الإقدامِ

أفادت ﴿مِنَ﴾ بيانَ جنسِ الغالبِ[1]، لمجيءِ لفظِ ﴿غَالِبَ﴾ وصفًا عامًّا؛ للإيذانِ بأنَّ المرادَ من نفي الجنسِ في قوله: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ﴾، هو ما كانَ من جنسِ النّاسِ، وليكونَ أدعى للمشركين على القتالِ بإيهامِهم، أنَّهم أقوى النّاس، فالتَّصريحُ بذكرِ النّاسِ تقريرٌ للمعنى، وإيضاحٌ له بالنِّسبةِ للمشركين.

مناسبةُ الوصلِ بالواوِ في قوله: ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾:

كـلُّ وعـودِ الشَّيطانِ هوانٌ وأوهامٌ

لمّا نفى الشَّيطانُ أن يكونَ أيُّ أحدٍ غالبًا للمشركين، ولكي يردَّ على ما قد يقعُ في نفوسِهم، من توقُّعِ الهزيمةِ، أو الخوفِ منها، وأنَّهم قد يغلبونَ لتزايدِ المسلمينَ، ولعلمِهم بأنَّ رسولَ اللهِ كُلَّما أَخْبَرَ عَنْ شَيْءٍ؛ وقَعَ[2]؛ زادَ في إضلالِه لهم، بأن ذكرَ لهم أنَّكم إن غلبتُم؛ فسأكونُ جارًا لكم، أعينُكم وأنصرُكم عليهم، ولن أتخلَّى عنكم، فأفادَ الوصلُ بالواو الجمعَ والتَّشريكَ، لتكونَ الجملةُ معطوفةً على ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾، والمعنى: أنَّكم ستغلبونَ لجمعِكم بين أمرين؛ أحدُهما: أنَّه لاغالبَ لكم، والثّاني: أنِّي جارٌ لكم، ليسدَّ عليهم أبوابَ الرُّجوعِ عن القتالِ، وأجازَ بعضُ المفسِّرين، أن تكونَ الواوُ للحالِ، وتكونَ جملةُ: ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ حاليَّةً، والتَّقديرُ: لا أحدَ يغلبكم، وأنا جارٌ لكم، أُعينُكم، وأنصرُكم؛ للإشعارِ بأنَّ انتفاءَ غَلَبَتِهم، إنَّما تكونُ في وقت جوارِه لهم، لتعظيمِ شأنِ جوارِه لعنَهُ اللّهُ[3].

دلالةُ التَّنكيرِ في لفظِ ﴿جَارٌ﴾:

مـن كـانَ الشَّيطانُ جارَهُ؛ طالَهُ الأذى من جوارِه

في قولِه: ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ جاءَ بلفظِ ﴿جَارٌ﴾ نكرةً؛ للإشعارِ بأنَّ الشَّيطانِ، كان يعظِّمُ جوارهُ للمشركين، ويفخِّمُهُ، وأنَّهُ الحامي

(1) الدّر المصون: 5/616، وابن عادل، اللّباب: 9/538.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/144.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/334.

النّاصرُ لهم، وأنَّهُ جارٌ لكلٍّ من ارتضى سلوكَ سبيلِه، واتِّباعَ غوايته، فهو باستعمالِ النَّكرةِ هاهنا، يشيرُ إلى عموم الجيرةِ الَّتي تتأتَّى لكلِّ من يريدُ أن يركنَ إليهِ، ويقبلَ حمايتَهُ وإعانتَهُ، أو يدخلَ في جوارِه، كما وعدَ الكفّارَ في ذلك الموقفِ المصيريِّ المهمِّ.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿جَارٌ﴾:

تبرُّعُ الشَّيطانِ في إجارته إضلالٌ للمشركينَ وتغريرٌ بهم

لم يقل: وإنّي أجيرُكم؛ لأنَّ التَّعبيرَ بلفظِ (أُجير)، يؤذنُ أنَّهم طلبوا إجارتَهُ، فأجارَهُم، فلمّا قال: ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾؛ دلَّ على أنَّه - لعنَهُ اللّهُ - وسوسَ لهم، أنَّهُ حاميهم من نفسِه من غيرِ طلبٍ منهم إضلالًا منهُ لهم، ولم يقل: وإنّي جارُكم، لِما تفيدُهُ اللّامُ هنا من تقويةِ اختصاصِ جوارِه لهم وتأكيدِه[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ بقوله: ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ بينَ الكنايةِ والاستعارةِ:

من كانَ الشَّيطانُ له جارًا؛ خطَّ إلى الخزيِ والنّارِ مسارًا

لمّا ألقى الشَّيطانُ في روعِ المشركين، وخيَّلَ إليهم أنَّهم لا يُغلَبون، ولا يُطاقون، لكثرةِ عَددِهم وعُدَدِهم، وأوهمهم أنَّ اتِّباعَهم إيّاهُ - فيما يظنّون أنَّها قرباتٌ - مجيرٌ لهم، حتَّى تجاسروا، فقالوا: اللهمَّ انصر أهدى الفئتين، وأفضلَ الدّينين، كان (جارٌ) على معناهُ اللّازمي، إمّا بالكنايةِ، بأنْ يرادَ الحامي لهم، وإمّا على الاستعارةِ، بمعنى: إنّي دافعُ الضَّررِ عنكم، لقربي منكم، وصحبتي لكم، كما يدفعُ الجارُ الضَّررَ عن جارِه.

تتابعُ المؤكِّداتِ في مقولةِ الشَّيطانِ:

الكذبُ لا تجدي فيه كثرةُ المؤكِّداتِ، ولا تلميعُ العباراتِ

تتابعتِ المؤكِّداتُ في قولِ الشَّيطانِ: ﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾، لتقريرِ ما يوسوسُ بهِ في صدورِ الكفّارِ، فأكَّدَ النَّفيُ غلبتَهُم بـ(لا) النّافيةِ للجنسِ - كما تقدَّمَ - وأكَّدَ جوارَهُ لهم، بـ(إنَّ) الَّتي تفيدُ تأكيدَ مضمونِ الجملةِ، وبالجملةِ الاسميَّةِ، وباللّام الدّاخلةِ لتقويةِ الاختصاصِ.

(1) السّامرائي، معاني النّحو: 3/74.

بلاغةُ الاستعارةِ:

إغواءُ الشَّيطانِ فنونٌ وفتونٌ لاستدراجِ كلِّ مفتونٍ

في قوله: ﴿زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾، و﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ﴾، التَّزيينُ والقولُ فيهما على سبيلِ الاستعارةِ التَّمثيليَّةِ، بتشبيهِ وسوستِه وتخييلِه بمن يفعلُ فعلَ التَّزيين، ويقولُ القولَ المذكورَ، ثمَّ حُذِفَ المشبَّهُ، وذُكِرَ المشبَّهُ بهِ، ليكونَ على معنى المبالغةِ، في تأثُّرهم بتزيينِ الشَّيطانِ، والمعنى: وسوسَ لهم، فحسَّنَ لهم أعمالَهم، وألقى في روعِهم، وخيَّلَ إليهم أنَّهم لا غالبَ لهم، فلا يغلبونَ، ولا يطاقونَ، لكثرةِ عددِهم وعُددِهم، فالقولُ مقالةٌ نفسانيَّةٌ لا لفظيَّة، فهو حديثٌ نفسيٌّ بوسوسةِ الشَّيطانِ في قلوبهم، ويُمْكِنُ أنْ يَكونَ صُدورُ هذا القَوْلِ، على لِسانِ بَعْضِ الغواةِ مِنَ النّاسِ، ممَّن كان مع المشركينَ في القتالِ، فقالَ لهم ذلك بإغْواءِ إبْليسَ لَهُ، ونُسِبَ ذلك إلى إبْليسَ؛ لِأنَّهُ هو المُتَسَبِّبُ في ذلك القَوْلِ، فيَكونُ القَوْلُ صادرًا مِن إنْسانٍ حَقيقَةً، وهو على طريق المجاز العقليِّ، باعتبارِ صدورِ قولِ ذلك الشَّخصِ المتأثِّرِ بوسوسةِ الشَّيطانِ[1].

دلالةُ حرفِ (الفاء):

أكبرُ الغبنِ والأساةِ أن يتبرَّأَ المتبوعُ مِنَ التّابعِ

في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ﴾ أفادتِ الفاءُ التَّعقيبَ، بمعنى: تعقيبِ وقوعِ ترائي الفئتين، على قولِ الشَّيطانِ من غيرِ مهلةٍ؛ للإشعارِ بسرعةِ نكوصِه وخيانتِه لهم، وقد تلاحقتِ الأحداثُ بسرعةٍ، وكانَ النُّكوصُ برجوعِه القهقرى على عقبيه، وقد تبرَّأ من المشركينَ، وقيل: "إنَّهُ كان آخذًا بيدِ الحارثِ بن هشام، أخي أبي جهلٍ، فلمّا رأى الملائكةَ، ينزلونَ مِنَ السَّماءِ، يقدمُهم جبريل (عليه السلام)؛ نزعَ يدَهُ من يدِ الحارثِ، وهربَ، فقالَ لهُ الحارثُ: أفِرارًا مِن غيرِ قتالٍ؟ وجعلَ يُمسِكُهُ، فدَفعَ في صدرِه، وقال: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ﴾، وهربَ"[2].

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 5/235، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/227، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/62، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/334، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/26، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/35.

(2) السّمعانيّ، تفسير القرآن: 2/271.

دلالةُ (لَمّا) في قولِهِ: ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ﴾:

أحبالُ الكذبِ قصيرةٌ، وخُدَعُ الشَّيطانِ مكشوفةٌ للعيانِ

لمّا كانت (لمّا) التَّعليقيَّةُ حرفَ وجودٍ لوجودٍ، يفيدُ وقوعَ أمرٍ لوقوعِ غيرِه، وفيها معنى الشَّرطِ والتَّعليل، ويدخلُ الكلام الَّذي يتضمَّنُها معنى الوقتِ[1]، أفادَ التَّعبيرُ بها أنَّ الشَّيطانَ نكصَ على عقبيهِ، وقال قولَهُ المذكورَ بمجرَّدِ وقوعِ ترائي الفئتينِ من قبلِ القتالِ، وأنَّ التَّرائي كانَ السَّببَ في نكوصِه، وأنَّ نكوصَهُ كان في وقتِ التَّلاقي والتَّرائي؛ لتضمُّنها معنى الوقت، ولاقترانِ الجوابِ بالشَّرطِ؛ إشعارًا بعظمِ فئةِ المؤمنينَ وقوَّتِهم ورهبتِهم، في أعينِ أعدائِهم حين التَّرائي مع قلَّتِهم في العددِ والعدَّةِ، ففيهِ تذكيرٌ بهذهِ النِّعمةِ العظيمةِ والآيةِ الباهرةِ، كما أنَّ فيهِ إيذانًا بسرعةِ انكشافِ كذبِ الشَّيطانِ في دعواهُ.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ ﴿تَرَآءَتِ﴾:

التَّرائي بين الفئتين مؤذنٌ بقربِ القتالِ والالتحامِ

لمّا كانَ الفعلُ ﴿تَرَآءَتِ﴾ على وزنِ تفاعلت، فهو من المفاعلةِ دلَّ على معنى المشاركةِ، أي: رأت كلُّ فئةٍ الأخرى رؤيةَ عينٍ، بحيثُ كانت كلُّ فئةٍ في مرمى نظرِ الفئةِ الأخرى، ومقابلةً لها؛ إشعارًا بقربِ القتالِ، والمعنى: "فَلَمّا تَراءَتِ الفِئَتانِ – أي: التقى الجمعانِ: جمعُ المؤمنين، وجمعُ الكافرين – بحيثُ رأت كلُّ واحدةٍ الأخرى، ورأى إبليسُ نزولَ الملائكةِ من السَّماءِ؛ نَكَصَ عَلى عَقِبَيْهِ، أي: رجعَ إلى خلفهِ هاربًا، وقالَ: إنّي بَرِيءٌ مِنكُمْ"[2]، والتَّرائي موقفٌ مزلزلٌ، تُمتحن فيه عزائمُ الرِّجالِ، ويُنظرُ فيهِ إلى جلَدِ الشُّجعان، ويكونُ فيصلًا في تحقيقِ النَّصرِ أو الهزيمةِ، والنُّكوصُ حين التَّرائي مؤذنٌ بالخيبةِ، وموحٍ بالخذلانِ، وكذلك هو شأنُ الشَّيطانِ في كلِّ مناحي الحياةِ، كلَّما زيَّن للإنسانِ أمرًا،

(1) الرّضي، شرح كافية ابن الحاجب: 3/309، والمراديّ، الجنى الدّاني، ص: 594، وابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 369.

(2) الرّضيّ، شرح كافية ابن الحاجب: 3/309، والمراديّ، الجنى الدّاني، ص: 594، وابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 369.

حتَّى إذا جدَّ الجدُّ، وجاءتِ اللَّحظةُ الحاسمةُ؛ نكصَ على عقبيهِ، وخذلَ منِ اغترَّ بهِ.

بلاغةُ المجازِ المرسلِ:

في قولهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ﴾، عبَّرَ بلفظِ ﴿تَرَآءَتِ﴾ على طريقِ المجازِ المرسلِ[1]؛ لأنَّ التَّرائي مسبَّبٌ عن التَّلاقي حتَّى صارَ كلُّ واحدٍ بحيثُ يتمكَّنُ من رؤيةِ الآخرِ، والمعنى: تلاقتِ الفئتانِ، فكان التَّلاقي سببًا في التَّرائي، وعُبِّرَ بالمجازِ المرسلِ، لتعظيمِ أثرِ المسَبِّب، وما ترتَّبَ عليهِ.

التَّلاقي سببٌ في التَّرائي، وهو مؤذنٌ بالتَّصادمِ والاشتباكِ

بلاغةُ الاستعارةِ:

لمّا كان التَّعبيرُ بلفظ ﴿نَكَصَ﴾ في قولهِ تعالى: ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾، بمعنى: رجعَ القهقرى في الأصلِ، عُبِّرَ بهِ؛ لتشبيهِ بطلانِ كيدِه مع إحكامِه، بالرُّجوعِ القهقرى، في عدمِ الوصولِ إلى ما قصدَهُ، ورجوعِه عنه خائبًا، بعدَ إقبالِه عليهِ؛ ليكونَ استعارةً تمثيليَّةً، تصويرًا لحالةِ رجوعِه، فارًّا منهزمًا، فالتَّعبيرُ بـ﴿نَكَصَ﴾ ليس على الحقيقةِ[2].

كلُّ نكوصٍ تأخُّرٌ وتعثُّرٌ، ونكوصُ الشَّيطانِ خيبةٌ وتنكُّرٌ

فائدةُ ذكرِ قولهِ: ﴿عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾:

لمّا كانَ الجارُّ والمجرورُ ﴿عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾، حالًا من فاعلِ ﴿نَكَصَ﴾، كان تأكيدًا لرجوعِه القهقرى، وتقريرًا له، ويحتملُ أن يكونَ حالًا مؤسَّسة؛ إذا كانَ (نكص) بمعنى مطلقِ الرُّجوعِ؛ لأنَّهُ كنايةٌ عن الفرارِ، فيفيدُ أنَّ رجوعَهُ كان على حالةٍ مزريةٍ خائبةٍ، هي حالةُ القهقرى، وعلى الوجهين أفادَ ذكرُ ﴿عَقِبَيْهِ﴾، تفظيعَ حالةِ التَّقهقرِ وخسَّتِها؛ لأنَّ عقبَ الرَّجلِ أخسُّ القوائمِ، لملاقاتِه الغبارَ والأوساخَ[3].

تفظيعُ حالةِ التَّقهقرِ بالتَّعبيرِ بالعقبِ لهوانِه

(1) الشّهاب، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 4/280، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/101.
(2) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 2/538، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/101، والآلوسيّ، روح المعاني: 10/22.
(3) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 5/618، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/37.

مناسبةُ الوصلِ في قوله: ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ﴾:

خـــــذلانُ الـشَّـيـطـانِ، يجمعُ بينَ القولِ المزيَّنِ، والفعلِ المخيَّبِ

أفادتِ الواوُ عطفَ القولِ على الفعلِ؛ لِما بين الجملتينِ من جهةٍ جامعةٍ تجمعُهما، وهي خذلانُهُ لهم، فأفادَ قولُ الشَّيطانِ المُبالَغَةَ في الخِذْلانِ والانْفِصالِ عنهم، فإنَّهُ - لعنَهُ اللهُ - لَم يَكْتَفِ بالفِعْلِ، حَتَّى أكَّدَ ذلك بالقَوْلِ[1]، ولمّا كان جوابُ (لمّا) جملتينِ معطوفتينِ؛ دلَّ على وقوعِ النُّكوصِ، والقولُ المذكورُ في وقتِ ترائي الفئتينِ.

بلاغةُ الاستعارةِ:

تـبرُّؤُ الشَّيطانِ قـمَّـةُ الـخيـبـةِ والخذلانِ

في قولِهِ تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ﴾ جاءَ الكلامُ على الاستعارةِ، إذ شبَّهَ تبرُّؤَ الشَّيطانِ من المشركين، وخذلانَهُ لهم، بالرَّجلِ الَّذي يقولُ هذا القولَ، إيذانًا بوضوحِ تبرُّئِه منهم، وأنَّه كان بمنزلةِ القولِ المسموعِ، أو يكون مجازًا عقليًّا، بأن يكونَ شخصٌ ممَّن كانَ معَهم في القتالِ، له شأنٌ، قال ذلك القولَ متأثِّرًا بوسوسةِ الشَّيطانِ[2].

دلالةُ (إنَّ) على التَّوكيدِ:

انقلابُ الشَّيطانِ وتـــبرُّؤُهُ مـن أتباعِـه، حقيقةٌ لا مفرَّ منها

تفيدُ (إنَّ) - في قولِهِ تعالى: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ﴾ - تأكيدَ مضمونِ الجملةِ، بمعنى: تأكيدِ براءةِ الشَّيطانِ من المشركينَ وتقريرِها، وهذهِ البراءةُ مسألةٌ حتميَّةٌ لازمةٌ، يلجأُ إليها أهلُ الباطلِ، حيثُ تكونُ وشائجُ الصِّلةِ منبتَّةً في النِّهايةِ بينَ أهلِ الباطلِ بعضِهم ببعضٍ، وعلى رأسِهم الشَّيطانُ الَّذي يعدُ أتباعَهُ ويمنّيهم، ثمَّ ينتهي إلى الانقلابِ عليهِم والتَّبرُّؤِ منهم، فتكونُ الخيبةُ الكبرى بينَهُ وبينَهُم.

نكتةُ الالتفاتِ في الضَّميرِ:

ما كـانَ للهِ دامَ واتَّصلَ، وما كانَ لغيرِ اللهِ انقطعَ وانفصلَ

في قولِهِ: ﴿بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ﴾ التفاتٌ بمجيءِ ضميرِ الخطابِ؛ لأنَّ النُّكوصَ يفيدُ الرُّجوعَ القهقرى، فلا يكونونَ قبالتَهُ؛ للإشعارِ بأنَّهُ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/335.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/35.

استحضرَهُم، كأنَّهم يسمعونَهُ، فقال قولهُ هذا[1]، ويحتملُ أن يكونَ على الظّاهرِ رجعَ مستأخرًا مقبلًا بوجههِ إليهم[2]، وأيًّا كانَ الأمرُ في هذهِ الحالةِ أو تلكَ، فإنَّ التَّبرُّؤَ بهذا الأسلوبِ السّافرِ الجليِّ، وبصورةٍ جازمةٍ باتَّةٍ، هو منتهى كلِّ علاقةٍ تقومُ على الباطلِ.

مناسبةُ تقديمِ: ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ على: ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ﴾:

قُدِّمَت الجملةُ الأولى على الثّانيةِ؛ لِما يُشعرُ بهِ ترائي الفئتينِ من شدَّةِ خذلانِه وخيبتِه (لعنهُ اللّهُ)، بما رأى حينئذٍ من إمدادِ الملائكةِ للمؤمنينَ، فتصاغرَ ودُحِرَ، فاستعجل الانهزامَ أوَّلًا، ثمَّ قال: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ﴾؛ تعظيمًا لآياتِ اللّهِ يومَ الفرقانِ، وإيذانًا بصغارِ الشَّيطانِ وضعفِه وحقارتِه.

تصاغرَ الشَّيطانُ لمّا رأى إمدادَ الملائكةِ للمؤمنينَ

بلاغةُ الاستئنافِ:

وردَ الاستئنافُ البيانيُّ في الآيةِ: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾؛ جوابًا لسؤالٍ تقديرهُ، (لِم قلتَ: إنّي بريءٌ منكم، وقد زيَّنت لهم أعمالَهم، وقلت: لا غالب لكم اليومَ من النّاسِ؟)، فكان الجوابُ في بيانِ السَّببِ ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾، فتبرَّأ لخوفِه ورهبتِه، ممّا رأى من خرقِ العادةِ، ونزولِ الملائكةِ.

قوَّةُ الشَّيطانِ ومكائدُهُ، تتضاءلُ أمامَ قدرةِ اللهِ الَّتي لا تُغالبُ

تتابعُ التَّأكيدِ:

في قولهِ تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ تنوُّعُ التَّأكيدِ في الآيةِ لتقريرِ معناها، بعدَ أنْ زيَّنَ لهم أعمالهم، ووعدَهم بالغلبةِ، فجاء على طريقِ الخبرِ الإنكاريِّ، بتأكيدهِ بـ(إنَّ)، ومجيءِ الخبرِ جملةً فعليَّةً، لتقوّي الحكمَ بنفسِ التَّركيبِ على تقديرِ تكرُّرِ الإسنادِ بتكرُّرِ المسندِ إليهِ، وهو الياءُ في قولهِ: ﴿إِنِّي﴾ والضَّميرِ المستترِ

التَّأكيدُ بلفظِ (لا) النّافيةِ على نفي رؤيتِهم ما كان يرى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/36.
(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 5/236.

في ﴿أَرَىٰ﴾ [1]، ولمّا تتابعَ التَّأكيدُ على إثباتِ رؤيتِه؛ ناسبَ أن يأتيَ بـ(لا) لتأكيدِ نفي رؤيتِهم، ما كان يراهُ[2].

بديعُ الطِّباقِ في قولِه: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾:

جاء طباقُ السَّلبِ في قولِه: ﴿أَرَىٰ﴾، و﴿لَا تَرَوْنَ﴾؛ ليفيدَ المقايسةَ بينَ رؤيةِ الشَّيطانِ ورؤيةِ المشركين، وأنَّ رؤيتَهُ ما لا يرون، كانت حينَ تراءتِ الفئتانِ.

تقابلُ اللَّفظينِ طباقٌ، وهو يجلّي المعنى، ويوضِّحُ الدّلالةَ

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿أَرَىٰ﴾ و﴿لَا تَرَوْنَ﴾:

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ ﴿أَرَىٰ﴾، إشعارًا باستمرارِ رؤيتِه، لما لا يرونَهُ، وأنَّها متجدِّدَةٌ حالًا فحالًا، ولم تكن مرَّةً واحدةً، ولتصويرِ حالةِ الرُّؤيةِ المستمرَّةِ، عُبِّرَ بقولِه: ﴿لَا تَرَوْنَ﴾، إشعارًا باستمرارِ نفي رؤيتِهم، ما يراهُ، ولتصويرِ الحالةِ كذلك.

ما يراهُ إبليسُ مستمرٌّ، بإرجاءِ اللهِ لهُ إلى نهايةِ الدُّنيا

مناسبةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ وصلتِه:

في قولِه تعالى: ﴿مَا لَا تَرَوْنَ﴾، عُبِّرَ بالاسمِ الموصولِ ﴿مَا﴾ المفيدِ العمومَ المرادَ بهِ تعظيمُ المرئيِّ وتفخيمُهُ، وتأكَّدَ هذا التَّعظيمُ بحذفِ العائدِ من الفعلِ ﴿تَرَوْنَ﴾، لما يشعرُ بهِ ذكرُ العائدِ من التَّخصيصِ، فيكونُ التَّعميم.

إفادةُ العمومِ هنا أولى من التَّخصيصِ لإفادةِ هولِ المرئيِّ

نكتةُ مجيءِ قولِه: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾:

لمّا علمَ الشَّيطانُ أنَّ القوَّةَ الَّتي مع المؤمنينَ، هي قوَّةُ اللهِ بما أمدَّهم من الملائكةِ، وعلمَ أنَّها لا تقهر، وأنَّ المشركينَ مهزومون لا محالةَ، وأنَّه لا قوَّةَ له ولا طاقةَ، قال مقولةَ العاجزِ: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾، وذهبَ بعضُ المفسِّرين إلى أنَّه إنَّما ذكرَ خوفَهُ من اللهِ تعالى في هذا الموضعِ، ولم يذكرْهُ في امتناعِه من السُّجودِ لآدمَ؛ لأنَّه قد كانَ سألَ الإنظارَ إلى قيامِ السّاعةِ، فلمّا رأى نزولَ الملائكةِ ببدرٍ؛ تصوَّرَ قيامَ السّاعةِ، فخافَ[3].

خوفُ الشَّيطانِ بسببِ ظنِّه أنَّ أوانَ قيامِ السّاعةِ قد آنَ

(1) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 217، 221.
(2) سيبويه، الكتاب: 3/117.
(3) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/235.

بلاغةُ التَّعبيرِ بقولِهِ: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ﴾، بين الاستئنافِ البيانيِّ والتَّأكيدِ:

رؤيـةُ الشَّيطانِ حقيقةٌ للهولِ، وخوفُهُ من اللهِ باطلٌ من القولِ

لمّا جاءَ قولهُ تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾، استئنافًا بيانيًّا، كما تقدَّم، فكأنَّ السّائلَ سألَ مرَّةً أخرى: وما حملكَ على هذا كلِّه؟ فكانَ الجوابُ: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ﴾، ويحتملُ أن يكونَ تأكيدًا لمضمونِ قولِهِ: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾، فإنَّهُ لمّا رأى ما رأى، هالَهُ الموقفُ، وفزعَ منه، فقال مؤكِّدًا مقتضاهُ: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ﴾.

دلالةُ الواوِ بين العطفِ أو الاستئنافِ:

ارتبـاطُ المعنى بـالـوعـيـدِ لمن يـخـالـفُ الـلـهَ، ويعادي نبيَّهُ

تحتملُ الواوُ في قولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾، أن تكونَ عاطفةً لتكونَ من تمامِ كلامِ الشَّيطانِ، في بيانِ جزاءِ الأفعالِ المخالفةِ لأوامرِ اللهِ تعالى، ويُحتملُ أن تكونَ استئنافيَّةً، ليكونَ الكلامُ من جهتِهِ ﷺ على معنى الوعيدِ، لمن يخالفُ أوامرَهُ، ويعادي رسولَهُ ﷺ، وهو الظّاهرُ؛ لأنَّ علماءَ الوقفِ ذكروا أنَّ الوقوفَ على الاسمِ الجليلِ في قولِهِ: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ﴾، هو وقفٌ حسنٌ أو مطلقٌ، أي: يحسنُ الابتداءُ بما بعدَهُ[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بقولِهِ: ﴿شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾:

مـجـازاةُ الـشَّـرِّ بـالـعـقـابِ من وعدِ اللهِ المرسَّخِ في الكتابِ

لمّا كانَ العقابُ لا يكونُ إلّا مجازاةً على أمرٍ، وكان لا يُستعمل إلّا في الشَّرِّ؛ عُبِّرَ بـ﴿شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾، دون أن يقولَ: (شديد العذاب)؛ لمناسبةِ المقامِ، ففيهِ إيذانٌ بسوءِ عاقبةِ أعمالِهم، وأنَّ الَّذي عملوهُ من معاداتِهم رسولَ اللهِ ﷺ، ومسيرِهم للقتالِ، وقتالِهم المؤمنين، هو من الشَّرِّ، وأنَّ ثمرةَ هذه الأعمالِ ستعقبُهم وتلحقُهم، ولا يفوتُ منها شيءٌ، وأنَّ اللهَ تعالى، هو المتعقِّبُ لهذهِ الأعمالِ المتقدِّمة، وسيجازيهم عليها سوءًا، وفيه تنبيهٌ أنَّ العقابَ يُرتكبُ بالجرائمِ، لا قبلَ أدائِها[2].

(1) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/410، والأشمونيّ، منار الهدى: 1/296.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (عقب)، والرّاغب، تفسير الرّاغب، ص: 93.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

نَكَصَ ورَجَعَ وفرَّ:

وردَ في الآيةِ السّابقةِ قولُهُ: ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾، ولم يقل: (رجعَ على عقبيهِ)، ولا (فرَّ على عقبيهِ)، لمناسبةِ لفظِ ﴿نَكَصَ﴾ للسّياقِ، فإنَّ النُّكوصَ هو إحجامٌ عن الأمرِ، بعدَ تقدُّمٍ لهُ، خوفًا ورهبةً، ممّا يلاقيهِ إن استمرَّ بالإقدامِ، مع تركِ غيرِهِ متقدِّمًا، ويكونُ باختيارِ صاحبهِ من غيرِ قهرٍ، وهو المناسبُ تمامًا، لمعنى الآية وسياقِها، بنكوصِ الشَّيطان عن المشركينَ يومَ بدرٍ، وأمّا (فرَّ) فهو بمعنى المباعدةِ بخفَّةٍ وسرعةٍ، فيكون فيهِ انكشافٌ لموضعٍ فيهِ اختلاطٌ، وأمّا (رجع)؛ فهو العودُ إلى ما كانَ منه البدءُ، أو تقديرُ البدءِ مكانًا كان أو فعلًا، أو قولًا، فهو تحوُّلٌ عن الاتِّجاهِ أو الحالِ إلى عكسهِ، والرُّجوعُ قد يكون محمودًا، وقد يكونُ مذمومًا، والنُّكوصُ لا يكون إلّا في مقامِ الذَّمِّ[1].

النُّكوصُ لا الفرارُ: إحجامٌ بعد إقدامٍ، والرُّجوعُ: عودٌ على ما منهُ البَدءُ

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (رجع)، (فرر)، (عقب).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 16 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-12-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 16 : المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-768-12-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9828150 بتاريخ 2024/01/18م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»